

## التفكير في المجتمع الجزائري :

### مخاطر الحتميات الدوغماتية وهيمنة النسق الاجتماعي التقليدي

د. سعيد لوصيف أستاذ محاضر

كلية علوم الإعلام والاتصال

جامعة الجزائر-3

### مقدمة

يعتبر التفكير في المجتمع الجزائري وظواهره النفسية الاجتماعية نشاط شيق وشاق في الوقت ذاته : شيق لأنه يسمح للباحث النفسي الاجتماعي الاستمتاع بلذّة الفهم واستنطاق المستتر لإعادة بناء حقيقة لم يدركها البعض، أو لا يريدون إدراكها لأنها تزعجهم وترفع الستار عن عجزهم وهشاشتهم في مواجهة شروط التحوّل. وشاق لأنه يفرض عليه الصرامة والالتزام العلميين وتجاوز تمركز الذات، دون التفريط في ذاتية بناء الواقع وإعادة تشكيله انطلاقاً من تناول نقدي يتجاوز البديهي والمألوف، ويتخطّى هوامش المحظور، ويتعدّى قوالب التماثل، ويرفض تصوّر المجتمع من منظور قيمي ومعياري وحتمي ينحصر في رؤية كوسمولوجية مغلقة للكون، لاغيا فكرة التفتح والتعددية الأنطولوجية اللتين تأسس عليهما الفكر البوييري والابستيمولوجيا الحديثة.

## أولاً : المجتمع الجزائري، الحتميات ومخاطر المطلقية الدوغماتيه

" (.. .) C'est notre tendance à rechercher la régularité des occurrences et à prescrire des lois à la nature qui est à l'origine du phénomène psychologique de la pensée dogmatique ou, plus généralement du comportement dogmatique : nous présumons partout la régularité et nous nous efforçons de la trouver même là où elle n'existe pas. (.. .)"

Karl Popper (Conjecture et réfutations, 1985).

تظلّ تداعيات التصوّرات الحتمية ؛ وبخاصة في مجتمعات "الأزمات المستدامة"<sup>1</sup>، عويصة وتبقى تشكّل خطراً محققاً على فكرة الحرية ذاتها على حدّ تعبير Karl Popper، الذي يشير بقوله<sup>2</sup> :

« [ L'idée d'un monde déterministe est ] l'obstacle le plus solide et le plus sérieux sur le chemin d'une explication et d'une apologie de la liberté, la créativité et la responsabilité humaines » (Popper, 1984 : 25-26).

وفي هذا الإطار، يظهر أنّ النظرية السوسولوجية الحديثة ليست اقتراباً حتمياً لواقع اجتماعي يتميز بالثبات والسكون<sup>3</sup> (إلاّ ظاهرياً) كنسق مغلق، وإنّما هي بناء مفاهيمي لواقع اجتماعي، يتميّز في العمق بالتعددية والديناميكية والتناقضات. فالنظرية السوسولوجية هي توثيق لغوي<sup>4</sup> (verbalisation) لصورة من الصور المتعددة للمجتمع وتفاعلاته الظاهرة والكامنة في الحياة الاجتماعية

<sup>1</sup> يقصد بمصطلح مجتمعات "الأزمات المستدامة" تلك المجتمعات التي بقيت رهينة أزمات متعاقبة ولا متناهية عبر مختلف مراحلها التاريخية ؛ لا تكاد أن تخرج من أزمة حتى تنغمس في أزمة أخرى.

<sup>2</sup> POPPER, Karl (1984). L'univers irrésolu, Plaidoyer pour l'indéterminisme, Paris, Hermann, 159 p.

<sup>3</sup> ينبغي التمييز في هذا الشأن بين خاصية ثبات وسكون الكون والأنساق التي يمكن دحضها ، وخاصية الانتظام باعتبارها مسلمة منطقية لفهم الكون وظواهره.

<sup>4</sup> « ...il n'existe aucun langage théorique neutre, aucune position avantageuse pour le « visiteur pur », nous choisissons et nous façonnons plutôt nos « faits » (et nos résultats) en les filtrant à travers les concepts linguistiques que nous utilisons. Bref, toute connaissance (de la nature et de la société) est une conceptualisation. » (M. Archer, « Théorie sociale et analyse de la société », Sociologie et sociétés, Vol. 30, n° 1, Printemps 1988, p. 10.

اليومية، تتعد عن الموقف الحتمي - المعياري عند محاولة فهم السلوك الإنساني والتفاعلات والممارسات الاجتماعية. وكما يشير Passeron، فإن دور العلم يتحدد أساساً في السعي نحو ضبط مصطلحاته بطريقة رمزية، غير أن الصعوبة تكمن - حسبه - في "العلاقات غير المستقرة وغير المثيرة للاستقرار بين اللغة النظرية البلاغية بمفاهيمها، ومستلزمات الملاحظة على أرض الواقع عند تعاملنا مع أية حقيقة من الحقائق"<sup>1</sup>. إذن لماذا يراد للجزائري أن يجعل (بضم الياء) منه رهينة حتميات لا يمكن فهمه إلا من خلالها، غير مبالين في ذلك بوجوده كنتاج لديناميكيات مجتمعية وتاريخية ؟

إنّ الموقف الحتمي هو تفكير جاهز و"مجمّد" (دغماتي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بصورة الماضي المقدّس)، يعبر بشكل أو بآخر عن هشاشة أنصاره من الجامعيين الجزائريين في مواجهة إشكاليات حاضر المجتمع الجزائري ورهانات مستقبله. وهي الفكرة التي يؤكد عليها Addi (2012) بقوله :

« La sociologie est une science empirique et un objet empirique. Que cet objet soit construit par des problématiques appropriées et des concepts analytiques ne signifie pas que ces problématiques se substituent à lui. La sociologie n'est pas un exercice livresque, ni une démonstration pédante pour salonnards ; c'est une production théorique, menée sur la base de l'observation des pratiques quotidiennes relatives à l'objet construit et délimité. Le domaine du sociologue n'est pas seulement la bibliothèque, encore moins les salons ; c'est la rue, c'est le complexe d'El Hadjar et les autres espaces publics où se produit et se reproduit l'interaction sociale » (Addi, 2012 : 53).

<sup>1</sup> Passeron, Jean-Claude, 2006 [1991]. Le raisonnement sociologique. Un espace non poppérien de l'argumentation. Paris: Albin Michel.

نقلا عن : إدوارد كونت وروجر هيكلوك ، " عوائق بناء المنهج ، مقاربات زمكانية ونهاية البداية". البحث النقدي في العلوم الاجتماعية ، جامعة بيرزيت 2011 ، ص 12.

إنّ الحتمية لا يمكن أن تفسّر بشكل مطلق ممارسات الجزائري ومعايشه النفسي الاجتماعي، بل لا يمكن لها أن تفسّر وجوده على ضوء فهم علمي لسيرورة المجتمع السوسيو- تاريخية. وعليه، لماذا يصرّ البعض من الجامعيين على انتهاج التصوّر الحتمي في فهم المجتمع وظواهره النفسية الاجتماعية، في الوقت الذي يمكنهم من الناحية الفلسفية والمنهجية، القبول بفكرة الحرية\*، من دون أن يشكل ذلك عائقاً أمام تفكيرهم في الواقع المتعدّد بطرائق وأساليب علمية ؟

وكما يشير Berlin (1969) فإنّه من الصعوبة بمكان القبول بفكرة الحتمية في تناول النشاط الإنساني، لأن ذلك معناه أن مفهوم الحرية الإنسانية يفقد دلالاته الفكرية وامتداداته المجتمعية ؛ بحيث يشير في هذا الشأن بقوله :

« It seems to me patently inconsistent to assert, on the one hand, that all events are wholly determined to be what they are by other events.. and, on the other, to assert that men are free to choose between at least two possible courses of action—free not merely in the sense of being able to do what they choose to do (and because they choose to do it), but in the sense of not being determined to choose what they choose by forces outside their control. » (Berlin, 1969 : xi).

وعليه، فإذا كان التصوّر الحتمي صحيحاً، فهذا يعني بالضرورة أنّ حرية الاختيار تبقى وهماً مطلقاً، وكأنني بهذا يراد أن يقال لنا أنّ

---

\* لا يقصد بالحرية في هذا السياق إمكانية فعل أيّ شيء (Omnipotence) ؛ بل يقصد بها الآلية المجتمعية التي تسمح لنا من الانتقال إلى الحداثة في معناها الذي أشار إليه هشام شرابي عند تعريفه لها بأنها عملية " تحوّل من نمط معرفي إلى نمط معرفي آخر، يختلف عنه جذرياً، وهي انقطاع عن الطرق التقليدية لفهم الواقع وإحلال أنماط فكرية جديدة". انظر في هذا الشأن : هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تحلف المجتمع العربي، تر: محمود شريح، دار نلسن، السويد، ط4 ، 2000.

أفعالنا اللاحتمية إنما تقع ضمن دائرة جهلنا بالأفعال المحتمومة علينا. وأستسمح القارئ إن كنت "عنيفاً" في قولي في هذا المقام، فأنا أفضل "وهم" أفكاري وأفعالي ومواقفي اللاحتمية التي تبقى ضمن دائرة "جهلي اللامتاهي" على حتميات مؤدلجة ترهن إرادتي وحرיתי على التفكير والنقد، تتركني حبيس "ذات عارفة متناهية"، وتعلق زمن مستقبلي على عقارب ساعات الهيمنة والشمولية الإستمية مهما كانت مصادرها.

إنّ متعة الحقائق - كما يؤكد عليها Popper - لا يجدها الباحث في الحقائق اليقينية الجاهزة، وإنما يجدها في الحقائق الصعبة والعسيرة. فالحتمية المحدودة (le déterminisme limité) الوحيدة التي يمكننا التسليم بها هي حتمية أخطائنا التي من شأنها أن تبعدنا عن التسلط والدوغماتية وتقربنا من فكرتي التفتح ولا نهاية المعرفة. إنّ التناول والتنظير الحتميين في سياق "الأزمات المستدامة" للمجتمع الجزائري وإشكاليات التحوّلات المجتمعية والمؤسسية المرتبطة بها، تبعد الباحث الاجتماعي عن سياق الاكتشاف والتأويل (التنظير اعتماداً على الاستقراء) أو سياق التفسير والتبرير (تعزيز النظريات استتباطياً) الذين تحدث عنهما Reichenbach، بل من شأنهما أن يموضعا نشاط البحث الأكاديمي في سياق "حكم اليقين المقدس" كنسق دوغماتي مغلق، يتجاهل الحقائق المتعددة للكون والمجتمع وظواهره ويتعدّهاها.

وبالرغم من كلّ المحاولات التي ميّزت البحث الفلسفي والجهود التي بذلت فيه لمدة تجاوزت قرنين من الزمن، يجمع

المنظرون الاجتماعيون<sup>1</sup> أنه لم يتمكن أيّ نسق أخلاقي (حتى ضمن مجموعة فلاسفة الأخلاق ذاتهم) من أن يفرض نفسه كنسق فعّال. وأمام هذا الإخفاق، يظلّ يصرّ البعض من الجامعيين الجزائريين في ساعات متأخرة من تطوّر العلم، على نقل المعطيات المجتمعية العلمية للمجتمع الجزائري إلى فضاء النقاش الأخلاقي المؤدلج، كانت الجزائر قد عرفته في سنوات خلت تحت مسميات مختلفة، أشهرها "أسلمة" العلوم الاجتماعية، معلنة بذلك بداية تقهقر الجامعة كمؤسسة لإنتاج الفكر وإعادة إنتاجه. وضمن هذا الطرح، كتب ELZANOWSKI (1993) قائلاً :

« La philosophie a produit un nombre considérable d'écoles de pensée incompatibles entre elles qui traitent des valeurs humaines et s'est montrée particulièrement impuissante en matière de justification de jugements de valeur fondamentaux non-dérivatifs. (...) De plus, l'absence d'une théorie consistante des valeurs humaines les rendent vulnérables à la démagogie politique et religieuse. » (Elzanowski, 1993 : 261).

توصل Michael RUSE مستلهما أفكاره من أعمال MOORE وHUME والمنظور التطوّري إلى خلاصة مفادها أنّ الكائنات البشرية تعيش في "وهم" موضوعية المعايير والقيم الأخلاقية المتعالية النقية، في حين أنّ هذه الأخيرة لا تجد لها أيّ شكل من المبررات على مستوى المعاش النفسي الاجتماعي. وفي رأينا، فإنّ الأمر يزداد تعقيدا عند محاولة فهم ودراسة مجتمعات "الأزمات المستدامة"، إذ يلاحظ أنّ

---

<sup>1</sup> انظر في هذا الشأن : Clavien C. « Comment les données scientifiques et les théories évolutionnistes transforment l'éthique normative », In : Clavien, C. & El-Bez, C. (eds.), Morale et évolution biologique ; entre déterminisme et liberté, Lausanne : PPUR, 2007.

التناقض الوجداني<sup>1</sup> وتعارض الأزمنة هي من أقرب المفاهيم - في تصورنا - لاستبطان واقعها وتفسيره. وغالبا ما يظهر التناقض الوجداني في سياق العلاقات الاجتماعية الضيقة، كالعلاقات الأسرية والعلاقات التي تميّز النسق الاجتماعي التقليدي القائمة أساسا على رابطة القرابة والدم والشبكات الاجتماعية التقليدية المهيمنة. وبالفعل فإن العيش تحت ثقل معايير النسق الاجتماعي التقليدي (الخشوع، الولاء والانصياع، الهشاشة ومحو الذات وإنكارها، الخبث والنفاق، الحفرة... الخ) من شأنه أن يولد التناقض الوجداني ويعزّز بروز هويات متناقضة في الذات الفردية. ويظهر هذا على الوجه الخصوص في إشكالية اللغات ومظاهرها عند الاستخدام والتواصل الاجتماعيين، والدين وتطويعه للأهواء وتناقضاتها، والتاريخ "الرسمي" وتغييبه لأبعاد الانتماء والهوية. ومهما يكن، يبقى من بين الأخطار المحدقة بعمل الجامعيين في تناول المجتمع الجزائري وظواهره النفسية الاجتماعية، من دون شك خطر "الشمولية المفاهيمية"<sup>2</sup> (Totalisme conceptuel)، أي ذلك النسق الفكري الذي يهدف إلى اختصار الواقع في كليته وتعدّد مستوياته، وفي تعقيداته وتناقضاته، في مفهوم واحد ووحيد مطلق، والاعتقاد "سذاجة" أنّه يشكل "نهاية المعرفة". لماذا يراد أن نقابل "الفردية" (الانعكاسية، الذاتية، الكفاءات الفردية...) كنقيض "للاجتماعي" (المعايير، القيم، البنيات الاجتماعية...) وكأنّ الفرد و"الواقع الاجتماعي" أو "الحقيقة الاجتماعية" يشكلان كيانين

<sup>1</sup> يشير مفهوم التناقض الوجداني (Ambivalence) إلى تجربة مشاعر ممزوجة ومختلطة، بل يدل على وجود قوتين للمعاني متناقضتين تتعايشان مع بعضهما البعض. كما يشير المفهوم في علم النفس إلى حالة نفسية وجدانية لشخص ما يعاني في مواقف معينة من مشاعر متناقضة.

<sup>2</sup> Valade Bernard, « De l'explication dans les sciences sociales : holisme et individualisme », in Jean-Michel Berthelot, Epistémologie des sciences sociales, PUF, Paris, 2001, pp. 357-405.

وعالمين مستقلين من الناحية الأنطولوجية والمنهجية ؟ وعليه، فإن Blumer يؤكد أنّ البنية الاجتماعية لا تشكل إلا مسرحاً للفعل ؛ فالثقافة والأدوار والطبقات الاجتماعية... الخ، تكون إطاراً للسلوكيات من دون أن تكون المحدد "الحتمي" [المطلق] في حدوثها.<sup>1</sup>

وعلى أية حال، فمن البديهي أن يكون الموضوع "الإمبريقي" (الفرد الإمبريقي، الاتصال الإمبريقي، القيمة الإمبريقية... ) مغايراً ويتجاوز بناء الموضوع "الإبستمي" (الفرد الإبستمي، الاتصال الإبستمي، القيمة الإبستمية... )، لكن الخطر الذي قد يترتب من الطرح الحتمي في فهم التفاعلات والممارسات الاجتماعية يكمن أساساً لما نعتقد ونوهم الآخرين بأنّ الموضوع "الإبستمي" هو الحقيقة المعرفية الوحيدة المطلقة التي نملكها وبأنّها تطابق كلياً وبصفة حتمية مطلقة الحقيقة النفسية الاجتماعية "الموضوع الإمبريقي". وعليه، فمن شأن هذه الوضعية التشويش على فهمنا للمجتمع في الصورة التي هو عليها أو كما هو - على حدّ تعبير بوردي - ؛ بحيث تخلق تناقضاً منهجياً (dissonance méthodologique) بين الموضوع "الإمبريقي" والموضوع "الإبستمي".

«Encore faut-il noter [que la réalité empirique] n'est conceptualisable que de manière partielle car il est impossible de recoller les différentes pièces du puzzle conceptuel pour en obtenir une description globale. Les concepts qui la décrivent n'en constituent pas une description univoque [le sociologue construit une réalité mais ne rend pas compte de LA réalité], elle reste au-delà de toute description exhaustive.»<sup>2</sup>

<sup>1</sup> D. Le Breton, L'interactionnisme symbolique, Paris, PUF, 2004, p. 42.

<sup>2</sup> A.Cochet, « En lisant le livre du physicien Hervé Zwirn, "Les limites de la connaissance". La science et l'ineffable », Transfinito. International Webzine [en ligne] [http://www.transfinito.net/article.php3?id\\_article=235](http://www.transfinito.net/article.php3?id_article=235)



ترتكز القيمة العلمية لأيّ خطاب تنظيري على قدرة الباحث على تفسير (استنباط) أو تأويل (استقراء) الحقائق الاجتماعية المتعدّدة اعتمادا على أدوات منهجية صادقة تسهم في جعل هذه الحقائق النفسية الاجتماعية حقائق موضوعانية. وعليه، فإنّ مهمّة الباحث الاجتماعي هي التأسيس للموضوعانية وليس الوصول إلى الحقائق المطلقة أو تصوير حقيقة مثلية (fantasmatique) وتسويقها على أنّها الحقيقة الاجتماعية المتناهية؛ ذلك أنّ هدف العلم هو الانتقال من معارف أقلّ صحة إلى معارف أكثر صحة (التقليل من احتمال جهلنا بالأشياء والعالم والكون وليس الزيادة في معارفنا اليقينية).

« Toute théorisation (...) est illusoire parce que, en cherchant à conceptualiser les raisons d'agir, la discussion théorique s'éloigne fortement de cette pratique ou parce que, en cherchant à modéliser les formes de l'agir, la description abstraite ne parvient pas au statut d'explication théorique, limitant son apport à une catégorisation formelle. Il convient donc de renoncer à l'ambition d'une théorisation spécifique. Cette dé-singularisation ne signifie pas de renoncer à produire une explication théorique de ce qu'est le fait d'agir (...), mais vise à construire une théorie de l'action tenant compte des caractéristiques formelles de ce contexte particulier dans lequel cette action se déroule ». (Soulet, 2003)<sup>1</sup>

إنّ العالم أوالمنظر الاجتماعي ليس من مهمته تعليم الفضيلة وتلقينها للناس أو تعليمهم معايير التصرف والتعامل في الحياة الاجتماعية. كما لا يمكن له أن يرتجل ويعلن ذاته رسولا أو مصلحا باسم العلم؛ لأنّ ذلك من شأنه أن يجعل الكثير من الطلبة الجامعيين

<sup>1</sup> Soulet, M.-H. (2003). "Penser l'action en contexte d'incertitude : une alternative à la théorisation des pratiques professionnelles ?". Nouvelles pratiques sociales – Une pragmatique de la théorie, vol. 16, n° 2, pp. 125-141. Disponible en ligne. <http://www.erudit.org/revue/nps/2003/v16/n2>

- بحكم التدهور الرهيب الذي تعرفه "المنظومة الجامعية" في الجزائر - ينجذبون عاطفيا نحو مثل هذه التصوّرات وينبهرون بها لأنهم يجدون فيها "وصفة" سحرية جاهزة تحجب عنهم عجزهم في تناول الظواهر الاجتماعية والتفكير فيها نقديا ومواجهة الواقع في تعقيداته اللامتناهية. إنّ مثل هذه التصوّرات من شأنها على حدّ تعبير بوبر أن تجعل الفرد يقبل "اعتقادا خطيرا بصورة غير نقدية وبشكل دوغماتي" (Popper, 1981 : 53). والملاحظ في مثل هذه الحالات أن أصحاب هذه التصوّرات وأنصارها يتضرعون بالعلم لتبرير منظور دوغماتي مغلق يحمل في طيّاته اعلانا مستترا عن سم وهذه التصوّرات و"عفتها" عن باقي التصوّرات العلمية الأخرى.

### **ثانيا : العلم والتنظير العلمي ليسا مرادفان للحتمية القبلية المطلقة**

« Il y a des moments dans la vie, où la question de savoir si on peut penser autrement qu'on ne pense, et percevoir autrement qu'on ne voit, est indispensable pour continuer à regarder ou à réfléchir. »

Michel Foucault « Les Usages du plaisir, 1979 ».

في كتابه "مرافعة للأحتمية Plaidoyer pour l'indéterminisme" يوجّه Popper مجهود منهجه الفكري لتحطيم فكرة الحتمية ودعوته للأحتمية، مع التركيز على ضرورة التخلّي عن الواحدية المنهجية والنظرية. لقد علمنا التاريخ الاجتماعي والسياسي للأمم، أنّ الحركات والديناميكيات الاجتماعية هي التي تؤسّس لأزمة المجتمعات وأفرادها ؛ وبهذا المعنى فإنّه لا يمكن للحتمية أن تقدّم نموذجا لتحوّلها الاجتماعي والتاريخي. وفي هذا السياق، ينبغي التفريق بين الطبيعة الإنسانية كحتمية كونية، والإنسان ككيان اجتماعي يتفاعل مع لا حتمية الواقع.

ومهما يكن، فإن أولئك الذين يسوّقون لبعض التصوّرات الحتمية، وبخاصة تلك التي تستعمل العلم مطية وتخفي نزعات إيديولوجية إسلاماوية، غالبا ما نجدهم يستخدمون اللغة والنص لبناء عالم موازي للحياة اليومية، يتغاضى عن تناقضاتها ويصرّ على صفتها، ويرفض أن تكون موضوع شكّ ومساءلة ونقد ومراجعة.

«Le risque essentiel de la recherche est de développer une dissonance cognitive entre la réalité complexe des situations à gérer et le simplisme des modèles servant à les appréhender, entre la réalité perçue des problèmes et la simplification des outils disponibles pour aider à concevoir de nouvelles formes d'action.» (Schmitt, 2005).<sup>1</sup>

ومن زاوية أخرى، فإنّ هذا "المجتمع الماهوي" و"المتعالي" الذي يصوّره البعض هو وهم مثلي (Fantasmatique)، لا وجود له إلاّ في مخيلتهم يفقد للأدلة الأنطولوجية التي تبرّر وجوده، أو كما سمّاها (Addi 2012) بـ "الدروشة الوطنية" التي تخلق جزائر خيالية ومجرّدة (...). في مقابل جزائريين موجودين بالفعل<sup>2</sup>. كما لا يعد وأن يكون هذا الخطاب إلاّ "خطاب خدعة" للذات و"خطاب مراوغة" للآخر، نهايتهما التأسيس لبرمجة إيديولوجية، تجرّد الفرد من قدرته الطبيعية على التفكير والتشكيك والفعل.

كما تعبّر هذه الوضعية على "جنوح الباحثين إلى التلويح" بسوسيولوجيا مشهدية" تبحث إيديولوجيا عن مجتمع لا وجود له أصلا بدلا من التفرغ لإنتاج سوسيولوجيا تؤول وتفهم وتشرح المجتمع بصفة علمية. فالسوسيولوجيا تصبح (...). بمثابة الملجأ الذي نلجأ إليه لنسيان

<sup>1</sup> Schmitt C., Le Chercheur et le praticien en management : quel(s) lien(s) pour quelle(s) relation(s) ? 6<sup>ème</sup> congrès européen de science des systèmes, 19-22 septembre 2005.

<sup>2</sup>Addi Lahouari, [algérie] Chroniques d'une expérience postcoloniale de modernisation. Editions barzakh, Alger, février 2012, p. 28.

المجتمع أو على الأقل للتنازل عن معرفته كما هو مكتفين في ذلك بحلمه كما يجب أن يكون.<sup>1</sup>

إن أنصار هذا المشروع يطرحون هذا التصور من منطلق فهم مبسط وسطحي مؤدلج للدين، غير معلى صراحة، لا يكلفهم عناء مواجهة فهم الواقع الجزائري في تعقيداته وتناقضاته اللامتناهية التي غالبا ما يعبر عنها بمفهوم الأزمة، لأن ذلك من شأنه أن يؤكد هشاشتهم وعجزهم تجاه فهم هذا الواقع (المتعدّد واللاحتمى) ويدحض فكرة الحتمية التي ينادون بها. وعليه، فالفهم والتناول النفسى الاجتماعى، ليس طريقا أو مسلكا نح واليقين الحتمى، كما أن المعتقدات والقيم ليست هي الأخرى حقائقا قبلية، وإنما هي حقائق بعدية تنتج ضمن مجال الفعل والحركة وليس الجمود والسكون.

«En effet, la "logique du devoir être" (Weber), source de tout moralisme, est la pire des conseillères. Elle conduit tout droit à la police de la pensée, dont on sait les méfaits. La logique inquisitoriale n'est pas loin, dès lors que l'on s'érige en juge de qui doit être pensé et de comment on doit penser. (...) Parmi les différentes manières d'aborder les faits sociaux, aucune n'étant exclusive, celle qui le fait à partir du quotidien, du banal, de l'imaginaire, s'emploie à rester enracinée, sans a priori normatif ou judiciaire, dans ce qui est l'existence de tout un chacun. Même si cela paraît paradoxal : une connaissance ordinaire» (Maffesoli, le Monde du 23. 04. 01).

يشير (Mingers 2004b)، أن العالم الذي يحيط بنا يحتوي على كيانات متباينة، تتمتع بخصائص انطولوجية (ما هو موجود) مختلفة؛ وهو الأمر الذي يبرر التعدد في الطروحات الاستمولوجية.

<sup>1</sup> عبد القادر لقعج "الجزائر: أرض مغامرة للسوسيولوجيا" أعمال الملتقى الوطنى حول علم الاجتماع "علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر: آية علاقات؟"، وهران 4 - 6 ماي 2002، دار القصبة للنشر، ص 14.

إنّ الادعاء بوجود تصوّر حتمي وحيد يفسّر العالم وكياناته وظواهره (الطرح الحتمي) يؤدي - مثلما يؤكد عليه رواد مذهب الواقعية النقدية (le réalisme critique) - إلى الوقوع في الخطأ الابستمي (تحديد ما يمكن أن يكون موجودا بالنسبة لمعرفةنا الحالية)، أو على العموم الوقوع في الخطأ الانثروبي (تحديد الكائن أو الوجود انطلاقا من الكائن الإنساني فقط).<sup>1</sup> فالعالم كما يؤكد Mingers<sup>2</sup> هو أكثر تعقيدا مما نعرفه عنه أو مما نستطيع أن نعرفه عنه. وعليه، وبعيدا عن الاطار الانطولوجي، فإنّ الواقعية النقدية تؤكد على فكرة أساسية تتعلق بتعددية المعارف، أي بمعنى التعددية الابستيمولوجية.

إنّ اختصار ممارسات الجماعات والأفراد من منظور وحيد وحتمي ومطلق، من المحتمل جدا أن يحرمنا هذا الموقف من الوصول إلى مفاتيح فهم عقلاني للظواهر والممارسات الاجتماعية النفسية الاجتماعية في كليتها وتعقيداتهما. وكما تشير Danièle Kergoat (2001) (87) : فإنّ العلاقات الاجتماعية تتميز بالتعددية وتتعايش مع بعضها البعض جوهريا (consubstantialité) ؛ بحيث يتيح هذا التعايش الجوهرى بين هذه العلاقات والتفاعل المستمر بينها إمكانية نسج بنية المجتمع والدفع بديناميكته.

وضمن هذا السياق، يؤكد Maffesoli (2001) أنّه ينبغي على السوسيولوجيا أن تقدّم وصفا ضمنيا عميقا للجوانب الفوضوية وغير المنظّمة و " غير المنطقية " في حياة المجتمعات<sup>3</sup> ؛ وهي جوانب نعتقد

<sup>1</sup> Bhaskar, R. (1978). A Realist Theory of Science. Harvester, Hemel Hempstead, U.K.

<sup>2</sup> Mingers J. (2004b). "Critical realism and information systems: brief responses to Monod and Klein". Information and Organization. Vol. 14, pp. 145-153.

<sup>3</sup> Maffesoli, M. « Eloge de la connaissance ordinaire ». Le Monde du 24.04.2001.

أنّها تميّز الحالة الجزائرية (فوضى العمران، تغيير التركيبة الديمغرافية والثقافية للمدينة وتفكك النسيج الاجتماعي، هيمنة البنيات الاجتماعية التقليدية واستفحال ثقافة البداوة والعصبيات الضيقة وإفشالهما لمشاريع التحوّل (الجامعة والمؤسسة الاقتصادية والسلطة السياسية على وجه الخصوص)، بروز العنف المادي والرمزي كآليتين، تكادان أن تكونا الوحيدتين في تحديد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، تغيير في سوسيولوجية نشاط العمل : ظهور فئة البقارة والبنزاسية و"التجار" غير الرسميون... الخ).

ومهما يكن، فإنّ هذا الموقف لا يلغي على الإطلاق إمكانية استخدام الباحث مفاهيم نفسية اجتماعية تفسّر (المنهج الاستبطاني) الواقع الخاص بمجتمعه، مع الحرص على أن تستوفي هذه المفاهيم شروط الصرامة العلمية والمنهجية في فهم هذا الواقع وتحليله، وأن لا تتناقض مع الديناميكية التاريخية لهذه المجتمعات أو تتعارض معها، وأن تسمح أيضا بتأسيس انعكاسية (réflexivité) وإضفاء دلالات ومعاني (ذات قيمة مضافة) لهذا الواقع<sup>1</sup> كما يعبر عنه أنصار الاثنوميتودولوجيا. وحتّى في العمل الدوركاي (دراسة الأفعال الاجتماعية كأشياء)، فقد كان من الصعب بناء مثل هذا العمل من دون تحليل للمعاني الداخلية لهذه الأفعال، باعتبارها أفعالا معرفية (التصورات الفردية والتصورات الجمعية) غير مادية ولا تقع تحت قبضة المذهب السلوكي.

---

<sup>1</sup> يتشكّل هذا الواقع في نظرنا من مجمل التفاعلات والممارسات الاجتماعية للحياة اليومية.

« ...Chaque agent, au cours de son apprentissage et de sa pratique scientifiques, se forme un ensemble de représentations mentales au moyen desquelles il raisonne à propos des phénomènes. Cet ensemble de représentations mentales, naturellement, est extrêmement contraint par les relations logiques entre les concepts de la théorie. Cependant, chaque individu, en fonction de son histoire, de l'apprentissage qu'il a suivi, de la forme sous laquelle les hypothèses théoriques lui ont été présentées et de l'ordre dans lequel elles ont été introduites, relie différemment ces représentations entre elles et au monde empirique. » (Vorms, 2009 : 8).

إن رفض التراث العلمي "الغربي" ورفض الاستتباط<sup>1</sup> قديماً كموقف مبدئي بحكم الاختلاف الثقافى ليس بالإجراء العلمي والمنهجي، وإنما يعبر في كثير من الحالات عن موقف إيديولوجي؛ إذ كيف نقبل دراسة وتدرّس نظريات "غربية" وفي المقابل نرفض استخدامها في نشاط البحث، وكأني بالنشأطين (نشاط التدرّس ونشاط البحث) منفصلين وغير متلازمين؟ بالإضافة إلى هذا، ينبغي التمييز في هذا الإطار بين الرفض الذي يعبر غالباً عن موقف إيديولوجي مستتر وغير معلن وسيرورتا النقد والدحض اللتين تعتبران نشاطين فكريين وعلميين ممنهجين.

إنّ الحديث عن لا إجرائية عدد من المفاهيم المرتبطة بالتصورات النظرية "الغربية" انطلاقاً من حجة اختلاف السياقات النفسية الاجتماعية يبقى على مستوى التشخيص فكرة مقبولة. لكن ينبغي أن يستوي هذا الدحض شروط المنهج العلمي بهدف بناء مفاهيم وتنظير علمي يأخذان بعين الاعتبار ابعاد السياق النفسي الاجتماعي "المحلي".

---

<sup>1</sup> يشاع منذ سنوات أنّ النظريات "الغربية" التي تدرّس في كليات العلوم الاجتماعية والإنسانية لا يمكن الارتباط بها أو استخدامها في نشاط البحث لأنها منتج "غربي" لا يفسّر استتباطياً واقعنا المختلف.

فالاختبار العلمي ينبغي أن يتم وفق سيرورة استتباطية ؛ أي بمعنى مواجهة المواضيع الإستيمية (المفاهيم) بالمواضيع الإمبيريقية (الشواهد والملاحظات الإمبيريقية المحلية)، وليس أن نواجه مواضيع إستيمية (مفاهيم) بمواضيع إستيمية أخرى، مهما كانت مصادرها (دينية أو أخلاقية... أو غيرها) والاقرار بأنّها تدحض الأولى وتفنّدها، وأنها تشكل في حدّ ذاتها الصورة المطلقة للواقع والمعاش النفسي الاجتماعي المحلي.

لقد أحدثت النسبية في المعارف العلمية الحديثة قطيعة عميقة مع الحقائق التي بقينا نعتقد أنها أبدية، ومكّنت الإنسان من التحرّر من قبضة الحقائق القديمة، التي غالباً ما ارتبطت بالمطلق والحتمية والمعيارية. وعليه، فإننا اليوم أغلب ما نعيش في مرحلة الارتباب والشك، حتّى في أسس معارفنا عن ذواتنا والعالم الذي يحيط بنا.

فالحقيقة العلمية بهذا المعنى، ليست حقيقة مطلقة وحتمية، وإنّما هي حقيقة نسبية ولاحتمية، إنّها حقيقة غير مكتملة، وبناء دائم ومستمر للمعارف، يدحض خطاب "نهاية المعرفة" والحتميات التي لا يمكن "المساس بها".

« Le scientisme est la position qui consiste à affirmer qu'il n'existe qu'un seul réel (celui que connaît la science), qu'une seule rationalité possible (celle de la science), qu'un seul genre de savoir possible (la connaissance scientifique) »<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> Dominique Folscheid, « Science, technique et médecine » ? in Dominique Folscheid, Brigitte Feuillet-Le Mintier, Jean-François Mattei, Philosophie, éthique et droit de la médecine, p. 175



### ثالثا : الفشل المستدام : آلية العطالة وإعادة إنتاج النسق الاجتماعي التقليدي

“La vérité est rarement enterrée, elle est juste embusquée derrière des voiles de pudeur, de douleur, ou d’indifférence; encore faut-il que l’on désire passionnément écarter ces voiles”. (Amin Maalouf)

عرفت " استراتيجيات التنمية " التي اعتمدها " البلدان النامية " منذ حوالي ستين سنة ، إخفاقا وفشلا؛ وبخاصة في بلدان القارة الإفريقية. ولا يمكن، بطبيعة الحال، استثناء الجزائر من حالات الفشل المتعددة في هذه القارة، ومناطق أخرى من العالم. ومن أهم صور هذا الفشل في الجزائر، هو محاولة الانتقال من " إستراتيجية تصنيع " ميّزت مرحلة الستينيات والسبعينيات إلى " إستراتيجية تفكيك التصنيع " بداية من سنوات الثمانينيات؛ ومحاولة الانتقال من مرحلة " الفلاحين التقليديين " إلى مرحلة " العمال الاشتراكيين " وبعدها مرحلة " المقاولين الليبراليين " <sup>1</sup> ؛ وكأني بها تنتقل من فشل إلى فشل آخر تؤكد حاليًا ، على سبيل المثال لا الحصر، معطيات اقتصادية واجتماعية وسياسية كثيرة نذكر من بينها : تحتل الجزائر حاليًا المرتبة 152 من بين 185 بلدا في العالم من حيث سهولة ممارسة الأعمال (Doing Business, 2013)، كما تراجع ترتيبها في السنة نفسها من المرتبة 134 (2009) إلى المرتبة 136 (2010 و2011)

---

<sup>1</sup> ينبغي الإشارة في هذا الصدد أنه على عكس بعض الأكاديميين والمحليلين الصحفيين المهتمين بالشأن الاقتصادي الجزائري، الذين يعتقدون أنّ الجزائر انتهجت اقتصاد السوق بداية من التسعينيات من القرن الماضي، نرى أنّ استخدام مصطلح " اقتصاد سوق " في الحالة الجزائرية لا يعدو أن يكون إلا تسويقا سياسويا. والواقع أنّه تمت هناك عملية تحويل للاحتكار من مؤسسات عمومية إلى مؤسسات خاصة بعينها نشأت من رحم النسق الاجتماعي التقليدي وتعمل لحدّ الآن على تكريس ممارساته.

والمرتبة 148 (2012)، وتحتل المرتبة 110 وفق مؤشر المنافسة العامة ضمن قائمة 144 بلدا (The Global Competitiveness Report 2013). يشير التقرير العالمي<sup>1</sup> حول الإبداع لسنة 2012 الذي تعدّه المنظمة العالمية للملكية الفكرية (OMPI) والمعهد الأوروبي لإدارة الأعمال (INSEAD) أنّ الجزائر تحتل المرتبة 124 عالميا فيما يتعلق بالمؤشر العام للإبداع من بين 141 دولة شملها التقرير. كما تشير دراسة الأمم المتحدة حول الحكومة الالكترونية (e-gouvernement) لسنة 2012 أنّ الجزائر تعرف تأخرا في ميدان الخدمات الحكومية المرتبطة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال الموجهة للمواطنين؛ إذ تحتل الجزائر المرتبة 131 عالميا من مجموع 190 دولة شملتها الدراسة<sup>2</sup>، كما أنّها لا تظهر في المراتب العشرة الأولى في الترتيب الإفريقي.

وفي دراسة أخرى (2011) أجرتها مؤسسة Business Software Alliance (BSA) التي تضم أكبر منتجي وناشري البرامج المعلوماتية (Microsoft, Adobe, Symantec, Apple, Cisco, IBM, HP) حول مؤشر المنافسة في صناعة تكنولوجيات الإعلام والاتصال، تحسّلت الجزائر على مؤشر منافسة قدر بـ 5.19 نقطة من مجموع 100 نقطة (المرتبة 65 من مجموع 66 دولة شملتها الدراسة)<sup>3</sup> يعتمدها التقويم العام وفق 06 متغيّرات: محيط الأعمال، البنية التحتية لتكنولوجيات الإعلام، رأس

---

<sup>1</sup> للإطلاع على محتوى التقرير كاملا يمكن استخدام الرابط الآتي:

[http://www.wipo.int/export/sites/www/freepublications/en/economics/gii/gii\\_2012.pdf](http://www.wipo.int/export/sites/www/freepublications/en/economics/gii/gii_2012.pdf)

<sup>2</sup> يمكن الإطلاع على ترتيب جميع الدول التي شملتها الدراسة عبر الرابط الآتي:  
<http://www2.unpan.org/egovkb/datacenter/CountryView.aspx>

<sup>3</sup> يمكن الإطلاع على المؤشرات وترتيب الدول التي شملتها الدراسة على الرابط الآتي:  
<http://globalindex11.bsa.org/country-table>

المال البشري، محيط البحث والتنمية، المحيط القانوني، دعم تطوير صناعة تكنولوجيايات الإعلام.

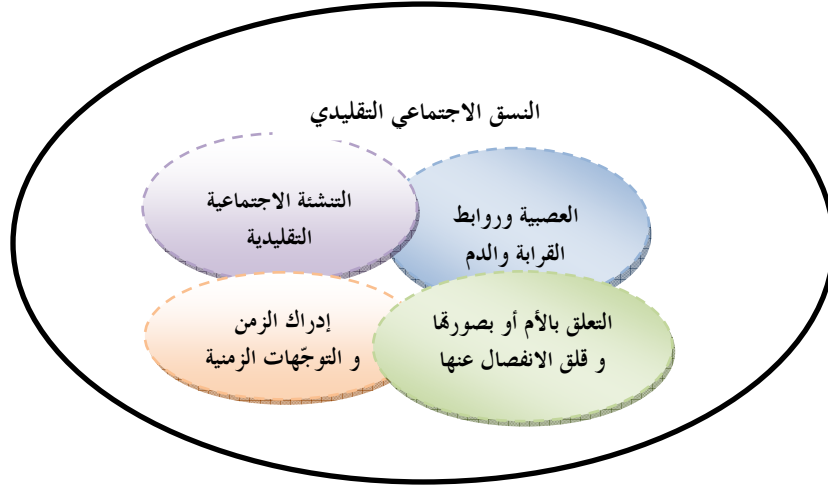
ومهما يكن، فإنّ المهمّ في هذا الإطار ليس سرد حالات الفشل وتعدادها -لأنها كثيرة -، بقدر ما يكون مهما الوقوف عند محدّداتها النفسية الاجتماعية؛ إذ يلاحظ من خلال مراجعة الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، وتقارير الخبرة لعدد من المنظمات الإقليمية والدولية، والمعالجات الصحفية، التي تطرقت لهذا الموضوع أنّه يتم تناوله من زاوية معيارية، أي انطلاقاً من نموذج معياري يقع ضمن ثنائية نجاح/فشل؛ إذ كثيراً ما يبرّر هذا الفشل على أنّه نتيجة منطقية بسبب غياب عوامل وظروف موضوعية في سيرورة البحث عن النجاح.

والواقع، أنّ هذه الاستنتاجات وإن كانت صحيحة في بنائها التحليلي من منظور معياري، فإنّها تبقى لا سياقية من حيث الفهم النفسي الاجتماعي، إذ تحجب علينا فهم المحدّدات النفسية الاجتماعية للفشل في المجتمع الجزائري. ولعلّ الإجابة عن هذا الانشغال قد نجدها في فهمنا لطبيعة النسق الاجتماعي التقليدي الذي يميّز تسيير المجتمع.

#### **رابعا : ماذا نعني بالنسق الاجتماعي التقليدي ؟**

لا نعني بوصف النسق الاجتماعي بالتقليدي، على أنّه قديم ويحتوي على التقاليد فقط، وإنّما " يدلّ أيضا على عجز الأفراد على التحكم في ظروف حياتهم وتوجيه مستقبلهم تبعاً لمتطلبات الساعة. وعادة ما يكون هذا النسق غير مدوّن كتابيا؛ فكلّ شيء فيه مسجّل ومحفوظ في الذاكرة الفردية والجماعية لهؤلاء، ثمّ يعاد استرجاعه وتبليغه شفويا " (31 : Medhar, 2005). بالإضافة إلى ذلك ومن ناحية نظرية، فإنّ وصف هذا التنظيم بالنسق يعني أنّ كل عناصره ترتبط ببعضها البعض في إطار علاقات منظّمة ومتضامنة

ومنتظمة<sup>1</sup> (انظر الشكل : 1). فالنسق الاجتماعي التقليدي نسق مغلق، يقوم أساسا على روابط القرابة والعشائرية ورابطة الدم، ويتخذ من ثقافة البداوة مرجعية لقبولية السلوكيات والممارسات وتميوطها، يرفض التفتح والتحول الاجتماعي. كما أنّ الديناميكية الوحيدة التي تحركه هي السعي نحو إعادة إنتاج ذاته ضمن أطر الثبات والجمود والهيمنة الدائمة والمستمرة على الأفراد وتجريدتهم من ذواتهم الفاعلة. وعليه، يظهر أنّ النسق الاجتماعي التقليدي هو في حد ذاته إقصاء قسري لديناميكيات التحول الاجتماعي وسيرورات التحديث.



الشكل (1) : مكونات النسق الاجتماعي التقليدي كنسق مغلق

<sup>1</sup> ينبغي الإشارة في هذا الإطار ، أنّنا نحدّد مكونات النسق الاجتماعي التقليدي في أربعة أنساق فرعية وهي : العصبية وروابط القرابة والدم ، التنشئة الاجتماعية التقليدية وتدعيمها للهشاشة وعرقلة سيرورة الفردانية ، التعلق بالأم أو بصورتها وقلق الانفصال عنها ، وأخيرا إدراك الزمن والتوجهات الزمنية المهيمنة اجتماعيا.

يشير Evans – Pritchard و Meyer Fortes، أن تاريخ الإنسانية لم يولد إلا نظامين من الحكم ونسقين منظمين ومحددتين من المجتمع : الأول، وهو الأقدم تاريخيا، يعتبر نظاما اجتماعيا تأسس على العشائرية والقبلية ؛ أما الثاني، وهو أحدث تاريخيا من الأول، يعتبر تنظيما سياسيا تأسس على الإقليم والملكية. وعليه، يتبين أن النسق الاجتماعي الحديث ظهر عندما أخذ الإطار الإقليمي مكان روابط القرابة ورابطة الدم كأساس يحدد النظام السياسي في المجتمع.

يبد والنسق الاجتماعي التقليدي كالتقيض التاريخي للحدثة وعملياتي التحول والتحديث الاجتماعيين، فهو نسق ما قبل - رمزي، يفضل أعضاءه التعامل مع المسجد<sup>1</sup> ولا يمكنهم فهم الأشياء بعيدا عن هذا التجسيد المادي البدائي الخالص الذي لا يبذل فيه الإنسان جهد وعناء التفكير في الأشياء وجماليتها، فالتجريد والعقلانية والرمزية هي المقابل السالب لهذا النسق.

ومهما يكن، فإن النسق الاجتماعي التقليدي - في نظرنا - هو أشبه ما يكون نتاج الإرادة العضوية التي تحدث عنها Tönies، والشكل الاجتماعي الذي ينشأ منها ؛ فالإرادة العضوية تطوّر الطائفة، لأن طبيعتها تقع على المستوى العاطفي واللاعقلاني في تحديد العلاقات، بحيث يتم التماثل فيها بصورة عاطفية، أو ما يمكن أن أسميه بـ "مجتمع ما قبل الفكرة". فالثقافة التقليدية، وإن كنا نحجبها ونحاول بشكل منظم إخفاءها، يتبين في الأخير من

---

<sup>1</sup> تظهر أحد صور غياب هذه الرمزية واستفحال هذا التعامل مع المسجد في الحياة اليومية للإنسان الجزائري في الأسماء التي يطلقها على مواقف الحافلات، ومن أمثلة ذلك : "دودانة" (Dos d'âne)، "لافاج" (Lavage)، "بورتاي" (Portail)، "فيراج" (Virage) ... الخ.

ملاحظات الحياة اليومية أنّها هي التي تتنظم حياتنا الاجتماعية منذ القدم. وضمن هذا السياق، فقد أشار Hugh Roberts خلال المحاضرة التي ألقاها بالجزائر في « les débats d'El watan » بتاريخ 9 أفريل 2010 أنّ " محاولات الإصلاح التي بادرت بها الجزائر بداية من التسعينيات كانت لها نتائج مؤسفة ". وقد فسّر Hugh Roberts هذا الإخفاق بهيمنة " القطاع اللّارسمي على القطاع الرسمي في النظام السياسي الجزائري. فالعلاقة بين اللّارسمي والرسمي، هي المصدر الأساسي لفشل الإصلاحات ". وعليه، فقد يقول قائل كيف يمكننا الحديث عن النسق الاجتماعي التقليدي في جزائر العقد الثاني من القرن الواحد والعشرون (21) وزمن العولمة. وحقيقة الأمر أنّ مرحلة ما بعد الاستعمار ليست مجرد مرحلة بسيطة تختصر في منظور زمني يعبر عن انتقال من قبل إلى بعد الاستعمار، وإنما هي عصر مجتمعي معقد يتركب من أزمنة متعدّدة. وبطبيعة الحال يؤثر في هذا العصر منظور زمني بعينه ويشكل فيه توجّها غالبا ؛ وفي حالة النسق الاجتماعي التقليدي بالذات، فإنّ الماضي بشكل عام والماضي المقدّس بشكل خاص، هو المنظور الزمني الغالب والمهيمن في المجتمع، باعتبار أنّ الجمود والثبات والسكون هم من خصائص هذا النسق.

إنّ النسق الاجتماعي التقليدي غير مبرمج أصلا للبحث عن النجاح، بل على العكس من ذلك نجد فيه البرمجة الثقافية للأفراد غالبا ما تكون موجّهة نح وتكريس الفشل واعتماده كآلية عطالة وإعادة إنتاج ذاته ؛ فالإفشال (faire échec) والفشل في سياق النسق

الاجتماعي التقليدي هما القاعدة، والإنجاح<sup>1</sup> (faire réussir) والنجاح هما الاستثناء. وعليه، يظهر أنّ حالة الفشل في المنظمات والمؤسسات التي رهن مستقبلها النظام الاجتماعي التقليدي، هي ليست نتيجة محتملة لإرادة اختيارية للنجاح (volonté délibérée de réussite)، وإنما نتيجة قطعية لإرادة اختيارية للإفشل (volonté délibérée de faire échec).

### **خامسا : الريع والعلاقات الريعية : هدر لطاقات الجزائري وكينونة المجتمع بأكمله**

تبقى الجزائر شديدة التبعية للمحروقات، بالرغم من الخطاب الرسمي الذي ظل يسوّق لفكرة التنويع في الاقتصاد منذ ما يقارب ثلاثة عقود، من دون أن نلمس لهذا الخطاب "الشعبي" امتدادا على أرض الواقع. فمنذ منتصف السبعينيات، وفي كلّ سنة كانت المحروقات تمثل أكثر من 95% من صادرات البلد. كما أنّ معدّل نمو الناتج الداخلي الخام الحقيقي والذي قدّر بـ 7.3% خلال العشرية الماضية، أتى في مجمله أساسا من الأداء الذي حقّقه قطاع المحروقات، الذي جلب أكثر من 97% من مداخيل الاستيراد، و70% من مداخيل الميزانيات و45% من الناتج الداخلي الخام.<sup>2</sup> وقد كان لهذه التبعية نتائج سلبية عديدة، كان من أخطرها أن الريع الاقتصادي رهن مستقبل مجتمع بأكمله، وأنتج نظاما زبائنيا طفيليا كبح تطوّر أنشطة اقتصادية حديثة وغيّب منذ الاستقلال ظهور دولة المؤسسات.

<sup>1</sup> تعتبر ارادة الانجاح والرغبة في النجاح خاصيتان تميّزان الأنساق الاجتماعية الحديثة؛ فالفرد في مثل هذه المجتمعات ينمو وينشأ ضمن مؤسسات اجتماعية تقوم على قيم الأداء والانجاز وثقافتها، وتعمل على ترسيخهما فيه.

<sup>2</sup> Perspectives économiques en Afrique 2011, www.africaneconomicoutlook.org/fr

وفي هذا السياق، يؤكد Bellal (2011) أنه إذا كان ريع المحروقات قد كبح التنمية في الجزائر، فذلك لأنه لم يستعمل أبدا كقيمة تبادل مدمج في منطق تجاري شامل، وإنما استعمل كقيمة استخدام؛ أي كثروة موجهة للتخلص منها عن طريق بعثرتها في الاستهلاك.<sup>1</sup> وعند تحليله لآثار الثروة البترولية، يشير Rex Brynen (1992) أنه إذا كانت هذه الثروة قد استعملت كعملة تبادل من أجل تحقيق التوافق، فإنها في المقابل أخّرت "التحوّل الديمقراطي" في الدول الريعية في العالم العربي.<sup>2</sup> وهنا أيضا، وبقدر صحة طرح Rex Brynen، فإننا نعتقد أن الثروة الريعية في الجزائر لم تؤخر فقط "التحوّل الديمقراطي"، وإنما عطّلت سيرورة "التحوّل الاجتماعي": التحوّل من نسق اجتماعي تقليدي إلى نسق اجتماعي حديث. وفي هذا الشأن يؤكد الأنصاري (2003) أنه من الخطأ بمكان أن نختصر جذور مشكلات التنمية في البلدان العربية في مسألة إشكالية التنمية الاقتصادية، بل ينبغي البحث عنها في إشكاليات التحوّل التاريخي الذي عجزت عن تحقيقه هذه المجتمعات.<sup>3</sup> وبدوره يشير Bendib (2006) لدى شرحه للريع كعلاقة اجتماعية مهيمنة في الجزائر بقوله :

---

<sup>1</sup> BELLAL S. Essai sur la crise du régime rentier d'accumulation en Algérie, une approche en terme de régulation. Thèse de doctorat (non publiée) en sciences économique, Université Lumière Lyon 2, mars 2011, pp. 255.

<sup>2</sup> REX BRYNEN, « Economic crisis and Post-Rentier democratization in the Arab World : the case of Jordan », Revue canadienne de science politique, xxv 1, mars 1992, pp. 69-97.

<sup>3</sup> الأنصاري، محمد جابر (2003). "جذور مشكلة التنمية الإنسانية في البلدان العربية". ندوة التنمية الإنسانية العربية، المنامة: جامعة الخليج العربي.



«...la rente en tant que rapport social dominant a produit non pas le citoyen de la société moderne mais le client de la société archaïque (pré-capitaliste). Et ce client, vu sa nature, est objectivement un « bras cassé » (il attend tout de l'Etat – rentier) et subjectivement un « impuissant » (il n'a pas les moyens de se révolter et attend donc un messie pour le sauver) ». (Bendib, 2006 : 31).

وعلى أية حال، فإنّ لهذه الوضعية في المجتمع الجزائري محدّداتها النفسية الاجتماعية، تتمثل أهمّها في هشاشة الإنسان الجزائري وتعلّقه المفرط بالأمّ المغدّية (mère nourricière) أو بصورتها وقلق الانفصال عنها، عبر كلّ مراحل سيرورة التنشئة الاجتماعية. وعليه، فإنّ استقرار النظام السياسي الظاهر في الدول الريعية الأوتوقراطية، لا ينبغي فهمه - في اعتقادنا - كنتاج للقهر والردع البوليسي والمخابراتي فحسب (وإن كان هذا العامل صحيحا)، وإنّما ينبغي التساؤل عنه والبحث في جذوره النفسية الاجتماعية أيضا، وبخاصة تلك المرتبطة بالحماية الشاذة التي يضمنها النسق الاجتماعي التقليدي عن طريق توزيع الريع، بنفس الكيفية التي يتعلّق بها الجزائري بالأمّ المغدّية وتعلّقه بها أو بصورتها، وتمسّكه بحمايتها ورعايتها إلى سنوات متأخرة من عمره.

إنّ تحقيق استقرار في الاقتصاد الكلي والاعتقاد "سذاجة" أنّه العامل الحاسم في تحقيق النمو، لا يعد وأن يكون إلّا وهما مزيّفا؛ إذ أنّ وجود مثل هذا الاستقرار في ظلّ غياب شبه مطلق لمؤسسات سياسية واجتماعية حديثة وشرعية كنتاج لديناميكيات وتحولات مجتمعية واعية، لا يمكن أن يؤسس للإبداع والنمّ والمستدام، بل من شأنه في ظلّ غياب هذا الشرط، أن يستخدم في تدعيم الأنشطة الريعية وتقوية سلطة زبانية النظام الريعي ورموز النسق الاجتماعي التقليدي.

## خلاصة

يستنتج مما سبق أن البحث الاجتماعي في الجزائر يعاني من وضعية "باتولوجية" معقدة، تتداخل فيها عدة عوامل مركبة زادت من حدّة الانفصام في هويته وقدرته على الاستجابة لمتطلبات تحولات المجتمع الجزائري وفهم محدداتها النفسية الاجتماعية.

إن أولى التحديات التي ينبغي علينا مواجهتها في سيرورات البحث الاجتماعي وإدارته هي تلك المرتبطة أساسا بمسائل المناهج والتداولات والأدوات المنهجية باعتبارها منافذا عقلانية للتفسير والتأويل. وثاني هذه التحديات هي السعي نحو ترسيخ أسس التفكير العلمي في تعددية مناهجه وتكاملها لدى الباحثين المبتدئين بعيدا عن وهم حتميات مثلية مؤدلجة تشعرهم بأنّ دحضها وتعديلها هو مساس بقدسيّتها.

إنّ القطيعة الابستمولوجية التي تحدّث عنها Bachelard لا بد أن تكون في بعض فروعها الساذجة لطبيعة المجتمع الجزائري والآليات النفسية الاجتماعية التي تنظمه، والتي نعتقد أنّها تشكل عائقا نفسيا ومعرفيا أمام سيرورات التحوّل الاجتماعي في حدّ ذاته، وسيرورات إنتاج معارف علمية تتيح لنا فرصة التقليل من جهلنا به وبظواهره.

## المراجع

- إدوارد كونت وروجر هيكوك (2011)، "عوائق بناء المنهج، مقاربات زمكانية ونهاية البداية". البحث النقدي في العلوم الاجتماعية، جامعة بيرزيت.
- الأنصاري، محمد جابر (2003). " جذور مشكلة التنمية الإنسانية في البلدان العربية". ندوة التنمية الإنسانية العربية، المنامة : جامعة الخليج العربي.
- لقجع عبد القادر (2002) "الجزائر : أرض مغامرة للسوسيولوجيا" أعمال الملتقى الوطني حول علم الاجتماع "علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر : أية علاقات ؟"، وهران 4 - 6 ماي، دار القصة للنشر.
- هشام شرابي (2000)، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر : محمود شريح، دار نلسن، السويد، ط4.
- Addi Lahouari, (2012). [algérie] Chroniques d'une expérience postcoloniale de modernisation. Editions barzakh, Alger.
- Archer, M. (1988). « Théorie sociale et analyse de la société », Sociologie et sociétés, Vol. 30, n° 1, Printemps.
- BELLAL S. (2011). Essai sur la crise du régime rentier d'accumulation en Algérie, une approche en termes de régulation. Thèse de doctorat (non publiée) en sciences économique, Université Lumière Lyon 2.
- Bendib, R. (2006). L'Etat rentier en crise : éléments pour une économie politique de la transition en Algérie, Office des publications universitaires, Alger.
- Berlin, I. (1969). Four essays on liberty. New York : Oxford University Press.
- Bhaskar, R. (1978). A Realist Theory of Science. Harvester, Hemel Hempstead, U. K.
- Clavien, C. (2007). « Comment les données scientifiques et les théories évolutionnistes transforment l'éthique normative » , In : Clavien, C. & El-Bez, C. (eds. ), Morale et évolution biologique ; entre déterminisme et liberté, Lausanne : PPUR.
- Cochet, A. « En lisant le livre du physicien Hervé Zwirn, "Les limites de la connaissance". La science et l'ineffable », Transfinito. International Webzine [en ligne] [http://www.transfinito.net/article.php?id\\_article=235](http://www.transfinito.net/article.php?id_article=235)

- ELZANOWSKI, A. (1993). « The Moral Career of Vertebrate Values », in M. & D. NITECKI (éd. ), *Evolutionary Ethics*, Albany : SUNY Press.
- Folscheid, D. « Science, technique et médecine » ? in Dominique Folscheid, Brigitte Feuillet-Le Mintier, Jean-François Mattei, *Philosophie, éthique et droit de la médecine*.
- HUME, D. 1946 (1740), *Traité de la Nature Humaine*, Vol. 2, Paris : Aubier.
- Le Breton, D. (204). *L'interactionnisme symbolique*, Paris, PUF.
- Medhar, S. (2005). *L'Irak miroir des arabes, dossiers Algériens*. Editions LRPSO, Alger.
- Mingers J. (2004b). "Critical realism and information systems : brief responses to Monod and Klein". *Information and Organization*. Vol. 14, pp. 145-153.
- MOORE, G. (1903). *Principia Ethica*, Cambridge : Cambridge University Press, accessible en ligne <[http : //fair-use. org/g-e-moore/principia-ethica](http://fair-use.org/g-e-moore/principia-ethica)> (réf. 06. 06. 2006).
- Passeron, J-C. (2006) [1991]. *Le raisonnement sociologique. Un espace non poppérien de l'argumentation*. Paris : Albin Michel.
- Perspectives économiques en Afrique 2011, [www.africaneconomicoutlook.org/fr](http://www.africaneconomicoutlook.org/fr)
- POPPER, Karl Raimund(1981). *La quête inachevée, autobiographie intellectuelle*, Paris, Calmann-Lévy.
- 
- POPPER, K. (1984). *L'univers irrésolu, Plaidoyer pour l'indéterminisme*, Paris, Hermann.
- REX, B. (1992). «Economic crisis and Post-Rentier democratization in the Arab World : the case of Jordan », *Revue canadienne de science politique*, xxv 1.
- Soulet, M. H. (2003). "Penser l'action en contexte d'incertitude : une alternative à la théorisation des pratiques professionnelles ?". *Nouvelles pratiques sociales – Une pragmatique de la théorie*, vol. 16, n° 2, pp. 125-141. Disponible en ligne. [http : //www. erudit. org/revue/nps/2003/v16/n2](http://www.erudit.org/revue/nps/2003/v16/n2)
- Schmitt, C. (2005). *Le Chercheur et le praticien en management : quel(s) lien(s) pour quelle(s) relation(s) ?* 6<sup>ème</sup> congrès européen de science des systèmes, 19-22 septembre.
- Valade, B. (2001). « De l'explication dans les sciences sociales : holisme et individualisme », in Jean-Michel Berthelot, *Epistémologie des sciences sociales*, PUF.